
حتى يطمئن
قلبك
وَسِيمَة جِي

حقوق النشر ©

إذا وجدت في هذا الكتاب خيرًا، فانشر الفائدة ولا تنسَ صاحب العمل من دعوةٍ صادقة بظهر الغيب، عسى أن يجعلها الله في ميزان حسناته، وينفع بها كل من قرأها.

نسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به، ويبارك فيه، ويجعله صدقةً جاريةً ما دام يُقرأ

حتى يطمئن قلبك.

المقدمة

لم أكتب هذا الكتاب لأنني أملك جميع الإجابات، ولا لأنني عشت حياةً خاليةً من الألم، بل كتبته لأنني كنت يومًا في أمسِّ الحاجة إلى من يحدثني بمثل هذه الكلمات.

كانت هناك أيامٌ شعرت فيها أن قلبي أثقل من أن يحمله أحد، وأن الأسئلة في داخلي أكثر من الأجوبة، وأنني أحتاج إلى شخصٍ يجلس بجانبي، لا ليحل كل مشكلاتي، بل ليأخذ بيدي إلى الله، ويذكرني أن وراء كل ابتلاء حكمة، ووراء كل دمعة رحمة، وأن الله لا ينسى عبدًا تعلق قلبه به.

انتظرت طويلًا أن أجد ذلك الحديث، وذلك الصوت الذي يهدئ خوفي ويوقظ يقيني، ثم أدركت بعد رحلةٍ من التعثر، والسؤال، والرجوع إلى القرآن، والتأمل في سنة رسول الله ﷺ، أن أعظم الكلمات ليست تلك التي تسمعها من الناس، بل تلك التي يفتح الله بها على قلبك في الوقت الذي تكون فيه في أشد الحاجة إليها.

عندها ولدت فكرة هذا الكتاب.

لم أكتبه لأخبرك أن الحياة سهلة، لأنها ليست كذلك، ولم أكتبه لأقنعك بأن المؤمن لا يحزن أو لا يضعف، فحتى الأنبياء بكت أعينهم، وضاقت صدورهم، وذاقوا مرارة الفقد والابتلاء. لكنهم كانوا يعرفون بابًا لا يُغلق، وربًا لا يخذل، ورحمةً أوسع من كل ألم.

وربما ستقرأ في هذه الصفحات كلماتٍ تعرفها من قبل، وآياتٍ مررت بها مراتٍ كثيرة، وأحاديث سمعتها منذ سنوات. لن أعدك بأنك ستتعلم شيئًا لم تسمعه قط، لكنني أدعو الله أن يرزقك شعورًا لم تعشه من قبل، وأن يفتح لك من معاني هذه الكلمات ما يطمئن قلبك، ويقربك منه سبحانه.

اقرأ هذا الكتاب على مهل، لا بعينيك فقط، بل بقلبك أيضًا. وإذا شعرت في أثناء القراءة أن إحدى الصفحات تتحدث عنك، فتوقف قليلًا، وأعد قراءتها، فقد تكون تلك هي الرسالة التي ساقها الله إليك في هذا الوقت.

وإن وجدت فيه خيرًا، أو كلمةً كانت سببًا في طمأنينة قلبك، أو قربك من الله، فلا تنسني من دعوةٍ صادقة بظهر الغيب؛ أن يغفر الله لي، ويرحمني، ويجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله نورًا لي في قبري، وسببًا في نجاتي يوم ألقاه.

أسأل الله أن يجعل هذه الصفحات شاهدًا لنا لا علينا، وأن يكتب لها القبول، وأن يجعلها صدقةً جاريةً ما دام في الأرض قلبٌ يقرأها، أو عينٌ تدمع بها، أو روحٌ تعود بسببها إلى ربها.

والحمد لله أولًا وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين

الإهداء :

إلى كل قلبٍ أثقلته الحياة...
إلى كل عينٍ بكت في ظلمة الليل، ولم تجد من تمسح دموعها...
إلى من ابتسم أمام الناس، بينما كان يخفي في داخله ألف وجع...
إلى من ظن يومًا أن الله قد نسيه، وما علم أن الله كان يدبر له من رحمته ما لم يخطر له على بال...
إلى من يبحث عن الطمأنينة في كل مكان، ولم يعلم أن أقرب طريق إليها هو القرب من الله...
إلى كل من أرهقه الذنب، واتعبه الندم، و أثقلته الأيام، ثم قرر أن يطرق باب ربه من جديد...
إلى كل روحٍ أنهكها الانتظار، وكل قلبٍ كسَرَه الفراق، وكل نفسٍ ضاقت بها الدنيا حتى ظنت أن الفرج بعيد...
هذا الكتاب ليس كلماتٍ تُقرأ...
بل دعاءٌ كتبته على هيئة صفحات.
ورجاءٌ أهديه لكل من ضاقت به الحياة.
فإن وجدت فيه ما يشرح صدرك، أو يخفف همك، أو يقربك من ربك، فاحمد الله أولًا وآخرًا، فهو صاحب الفضل كله.
ثم لا تنسَ كاتبته من دعوةٍ صادقةٍ بظهر الغيب؛ فلعل الله يجعلها سببًا في مغفرة ذنب، أو تفريج كرب، أو رفعة درجة، أو يجعل هذا الكتاب نورًا لي في قبري، وصدقةً جاريةً لا ينقطع أجرها ما دام في الأرض من يقرأه وينتفع به.
أسأل الله أن يطمئن قلبك كما طمأن قلوب عباده الصالحين، وأن يرزقك من السكينة ما ينسيك كل وجع، ومن رحمته ما يجبر كل كسر، ومن فضله ما يفوق كل أمنية.
{أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}

لماذا يبتليك الله؟

"قد يكون السؤال الذي أوجع قلبك سنوات... هو نفسه الباب الذي سيدخلك إلى الطمأنينة."

هل وقفت يومًا في منتصف الليل، وكل شيء من حولك هادئ، بينما داخلك يعجُّ بالأسئلة؟

لماذا حدث هذا لي؟

لماذا طال الطريق؟

لماذا كلما ظننت أنني اقتربت من الفرج، وجدت ابتلاءً جديدًا ينتظرني؟

وربما رفعت رأسك إلى السماء، لا اعتراضًا على قضاء الله، ولكن لأن قلبك المتعب يبحث عن معنى يطمئنه. ولو علمت أن الله يعلم سؤالك قبل أن تنطق به، وأنه يسمع أنين قلبك قبل أن تخرج به الكلمات، لعلمت أن أول ما تحتاج إليه ليس جوابًا، بل يقينًا بأنك لست وحدك.

إننا نعيش في دنيا لم يعد الله أحدًا فيها بحياةٍ خالية من الألم، بل وعد المؤمنين بشيء آخر، وعدهم أنه معهم، فقال سبحانه:

{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}. وتأمل هذه الآية جيدًا، فالله لم يعدك بأن الطريق سيكون سهلًا، لكنه وعدك بأنك لن تسير فيه وحدك. وكم بين الأمرين من فرق! فرب طريقٍ شاق، لكنه يهون لأن الله معك، ورب طريقٍ مريح، لكنه موحش لأن القلب بعيد عن ربه.

ولو تأملت حياة الأنبياء، لوجدت أن الابتلاء لم يكن استثناءً في حياتهم، بل كان جزءًا من طريقهم إلى الله. أيوب عليه

السلام لم يكن مذنبًا حين مرض، ويعقوب عليه السلام لم يكن بعيدًا عن ربه حين فقد يوسف، وإبراهيم عليه السلام لم يُلقَ في النار لأن الله تركه، ورسولنا محمد ﷺ لم يُؤذَ لأنه أقل منزلة عند الله. بل كانوا أحب خلق الله إليه، ومع ذلك ذاقوا من البلاء ما تعجز الكلمات عن وصفه. حتى قال النبي ﷺ: «أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل.» وكأن هذا الحديث يهمس في أذن كل مبتلى: لا تجعل البلاء دليلًا على أن الله أبعدك، فقد يكون علامة على أنه يربيك، ويطهرك، ويرفعك، ويهيئك لشيء لا تراه الآن.

إن الإنسان بطبعه يحب أن يفهم كل شيء، لكن هناك أقدارًا لا تُفهم إلا بعد سنوات، وربما لا تُفهم إلا حين يقف العبد بين يدي الله. كم من بابٍ أُغلق في وجه إنسان فبكى، ثم اكتشف بعد زمن أن الله أغلقه رحمةً به. وكم من أمنيةٍ تأخرت حتى ظن صاحبها أن الله لم يستجب له، ثم علم أن لو تحققت في وقتها لكانت سببًا في تعاسته. نحن ننظر إلى يومٍ واحد، أما الله فيدبر العمر كله، بل ما بعد العمر أيضًا.

تأمل طفلًا صغيرًا يمسك بيد أبيه وهو ذاهب إلى الطبيب. يبكي حين يرى الإبرة، ويظن أن أباه سلّمه للألم، بينما الأب يعلم أن دقائق من الوجع ستحفظ صحته سنوات. الطفل لا يرى إلا الإبرة، أما الأب فيرى الشفاء. ونحن كثيرًا ما ننظر إلى أقدار الله كما ينظر ذلك الطفل؛ نرى الألم ولا نرى الحكمة، ونرى الدموع ولا نرى ما يخبئه الله بعدها من الخير. ولذلك قال سبحانه: {وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}. لم يقل: "وهو خير" فقط، بل قال: {لَّكُمْ}، أي أن الخير قد يكون مختبئًا داخل الشيء الذي كنت تتمنى زواله.

ولعل أجمل ما يفعله الابتلاء أنه يعيد الإنسان إلى حقيقته. ففي أيام القوة قد يظن أنه قادر بنفسه، وأنه يمضي بحكمته، وأنه يملك زمام حياته، ثم تأتي لحظة يعجز فيها عن تغيير شيء، فيرفع يديه إلى السماء لأول مرة بصدق، ويقول: "يا رب." وما أكثر القلوب التي عادت إلى الله بسبب دمعة، وما أكثر الأرواح التي عرفت معنى السكينة بعد ليلة طويلة من الانكسار. ليس لأن الله يحب أن يرى عباده يتألمون، حاشاه سبحانه، ولكن لأنه يحب أن يراهم قريبين منه، متعلقين به، يعلمون أن لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه.

ولذلك لا تجعل أول سؤال يخرج من قلبك إذا نزل بك البلاء: "لماذا أنا؟" بل اجعل السؤال: "يا رب، ماذا تريد أن تعلمني؟" فقد يريد أن يعلمك الصبر، أو يطهرك من ذنب، أو

يرفع درجتك، أو يفتح لك بابًا لم تكن لتطرقه لولا هذا الألم.
وربما لن تعرف الجواب اليوم، لكن يكفيك أن تعلم أن الذي اختار لك هذا الطريق هو أرحم بك من نفسك، وأن رحمته ليست دائمًا فيما تتمنى، بل فيما يعلم أنه أصلح لك.
وربما يأتي يوم، بعد أعوام، تنظر فيه إلى أكثر مرحلة أبكتك، فتبتسم وتقول: "الآن فهمت." ستدرك أن الله لم يكن يؤخرك ليحرمك، ولم يكن يمنع عنك ليقسو عليك، وإنما كان يدبر أمرك بلطفٍ لم تستطع رؤيته وأنت في قلب العاصفة.
وستعلم أن كل سجدة خرجت من قلبٍ منكسر، وكل دمعة نزلت وأنت تناجي ربك، وكل مرة قلت فيها: "حسبي الله ونعم الوكيل"... لم تضِع عند الله، ولن تضيع أبدًا.
فإذا خرجت من هذا الفصل بشيء واحد، فليكن هذا اليقين:
ليس كل بابٍ أُغلق في وجهك كان شرًا، وليس كل دمعةٍ ذرفتها كانت خسارة، وليس كل ابتلاءٍ مررت به كان عقوبة.
أحيانًا يكون البلاء هو الطريقة التي يقودك الله بها إلى مكانٍ ما كنت لتصل إليه لو بقيت حياتك كما أردتها أنت.

✿ سؤالٌ لقلبك ✿

لو كشف الله لك اليوم الحكمة الكاملة من أصعب ابتلاء مررت به... هل كنت ستتمنى أن يُمحى من حياتك، أم كنت ستحمده لأنه اختاره لك؟

عندما يؤخر اللهُ أمنيتك..

"ليس كل تأخيرٍ حرمانًا... فقد يؤخر اللهُ ما تحب، لأنه يريد أن يعطيك ما هو خير."

هناك أمنيات لا تغادر القلب، ندعو الله بها في السجود، ونرفعها إليه في آخر الليل، وننتظرها مع كل صباح، ثم تمر الأيام، وربما الشهور، وربما السنوات، ولا يحدث شيء.
عندها يبدأ القلب بالتساؤل:
"يا رب... أما آن لهذا الدعاء أن يُستجاب؟" وقد تكون أصعب لحظة في حياة الإنسان، ليست حين يُرفض طلبه، بل حين لا يفهم سبب التأخير. فنحن نرى الزمن بعيوننا المحدودة، أما الله فيراه بعلمه الذي أحاط بكل شيء، ولذلك قد يكون تأخير العطاء هو عين الرحمة، وإن بدا لنا غير ذلك.
تأمل في قصة يعقوب عليه السلام، فقد غاب عنه يوسف سنوات طويلة، حتى ابيضّت عيناه من الحزن، ومع ذلك لم يقل يومًا إن الله خذله، بل قال: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ}. كان يعلم أن الباب الذي يُغلق في الأرض، يبقى مفتوحًا في السماء. ولم يكن يعلم متى يعود يوسف، لكنه كان يعلم يقينًا أن الله لا يضيع عبده إذا صدق في التوكل عليه. ثم جاء اليوم الذي جمع الله فيه بينهما بطريقة لم يكن يتخيلها أحد، لنعلم أن الفرج إذا جاء من الله، جاء أجمل مما رسمته مخيلتنا.
كم مرة تمنيت شيئًا بكل قلبك، ثم لم يحدث، فحزنت، ثم اكتشفت بعد زمن أن الله أنقذك مما كنت تتمناه؟

وكم مرة ظننت أن بابًا أغلق في وجهك، ثم فتح الله لك بابًا لم يخطر ببالك؟

إن الإنسان يدعو بما يعلم، والله يقدر بما يعلم، وفرقٌ كبير بين علمنا القليل، وعلم الله الذي لا يحده شيء.
وقد قال رسول الله ﷺ: «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يُستجب لي.» وليس معنى ذلك أن الدعاء ضاع، فالله لا يرد يدًا رُفعت إليه صادقة، لكنه سبحانه قد يعطيك ما سألت، أو يصرف عنك من السوء مثله، أو يدخر لك الأجر يوم تلقاه، وحين ترى ذلك اليوم ما ادخره الله لك، ستتمنى لو أن كل دعواتك تأخرت، لأن عطاء الآخرة أبقى وأعظم.
لا تجعل الشيطان يقنعك أن صمت السماء يعني أن الله لا يسمعك. إن الله يسمع همسة القلب قبل أن تتحرك الشفاه، ويعلم دمعتك قبل أن تنزل، وقد يؤخر الإجابة لأنه يحب أن يسمع منك الدعاء، ويحب أن يراك واقفًا ببابه، منكسرًا بين يديه، مستغنيًا به عن كل أحد. وما أجمل أن يكون لك بابٌ لا يُغلق، كلما ضاقت بك الدنيا، وجدت ربك يقول: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}.
فإذا طال انتظارك، فلا تظن أن الله نسيك، فإن الذي يدبر حركة النجوم في السماء، ويخرج الزهرة من بين الصخور، ويحيي الأرض بعد موتها، يعلم الوقت الذي يكون فيه عطاؤه خيرًا لك. فاصبر جميلًا، ولا تيأس، فربما كانت أمنيتك في

طريقها إليك، لكن الله يعدها لتأتي في أجمل وقت، وبأجمل صورة.

✿ سؤالٌ لقلبك ✿

لو علمت أن اللّٰه سيحقق لك كل ما تتمناه، ولكن في الوقت الذي يعلم أنه خير لك... أما كان ذلك كافيًا لتطمئن وتنتظر بقلبٍ راضٍ؟

الأشياء التي كسرتك.. ربما كانت تنقذك..

"ليس كل كسرٍ نهاية... فبعض القلوب لا يدخلها النور إلا بعد أن تنكسر."

هناك لحظات يظن الإنسان فيها أن كل شيء قد انتهى.
لحظات لا يبكي فيها لأن الدموع جفت، ولا يتكلم لأن الكلمات خانته، بل يكتفي بالنظر إلى السماء وكأن قلبه يقول:
"يا رب... لم يعد فيَّ شيء."
والعجيب أن كثيرًا من أعظم التحولات في حياة الإنسان بدأت من تلك اللحظة بالذات؛ لحظة الانكسار التي ظنها نهاية، فإذا بها بداية لم يكن يتوقعها.
إن القلب وهو ممتلئ بنفسه، قلَّ أن يشعر بحاجته إلى الله، لكنه حين ينكسر، يسقط عنه شيء من الغرور، ويصبح الدعاء مختلفًا، والسجود مختلفًا، وحتى قراءة القرآن تصبح وكأنها أول مرة. فجأة، لا يبحث الإنسان عن الكلمات الجميلة، بل عن كلمة واحدة تطمئنه، ولا يبحث عن الناس بقدر ما يبحث عن ربه. وهناك... في تلك اللحظة التي لا يراك فيها أحد، يعلم الله ما في قلبك، ويعلم كم قاومت حتى لا تنطفئ، وكم ابتسمت أمام الناس بينما كنت تحمل في داخلك حربًا لا يعلمها إلا هو.
ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا اشتدت عليه الأمور، لم يهرب منها إلى الناس أولًا، بل كان يفزع إلى الصلاة. لأنه يعلم أن القلوب لا تُجبر بكثرة الكلام، وإنما بقربها من الله.
قال سبحانه: {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}.

لم يقل: تطمئن بكثرة المال، أو بتحقق الأمنيات، أو باختفاء المشكلات، لأن الطمأنينة ليست غياب العاصفة، بل حضور الله في قلبك وأنت وسطها.

وربما لهذا السبب يؤخر الله جبرك أحيانًا، لا لأنه تركك، بل لأنه يصنع في داخلك إنسانًا جديدًا. إن الجرح قبل أن يلتئم، يبني الله حوله صبرًا، ويزرع فيه حكمة، ويخرج منه قلبًا أكثر رحمةً بالناس، وأكثر قربًا منه. ولو عاد بك الزمن إلى ما قبل ذلك الألم، ربما لم تكن لتعرف ربك كما عرفته بعده، ولم تكن دمعتك في السجود لتخرج بذلك الصدق الذي خرجت به يوم انكسرت.

تذكر يوسف عليه السلام. لم يبدأ طريقه على عرش مصر، بل بدأ في بئرٍ مظلم، ثم بيع عبدًا، ثم دخل السجن ظلمًا. ولو نظر الناس إلى قصته في منتصفها، لقالوا: ما أشد قسوته! لكن الله لم يكن يكتب النهاية في منتصف الطريق. وحين اكتملت القصة، فهم الجميع أن كل محطة كانت تقوده إلى المكان الذي اختاره الله له منذ البداية. وكذلك أنت... لا تحكم على حياتك من فصلٍ لم يكتمل بعد.

لعل أكثر ما يؤلم الإنسان أنه يريد أن يفهم كل شيء الآن، بينما حكمة الله تحتاج أحيانًا إلى سنوات حتى تنكشف. ولهذا، إذا ضاقت بك الحياة، فلا تجعل عينك على الباب المغلق، بل اجعلها على الذي بيده مفاتيح كل الأبواب. فالله لا يكسر قلبًا لجأ إليه إلا ليجبره، ولا يطيل ليلًا على عبدٍ مؤمن إلا لأن الفجر الذي أعده له سيكون أجمل مما يتخيل.

وربما يأتي يوم، تنظر فيه إلى كل ما أبكاك، ثم تبتسم، لا لأن الألم كان سهلًا، بل لأنك أدركت أن يد الله كانت تحملك طوال الطريق، حتى في الأيام التي ظننت فيها أنك وحدك.

✿ سؤالٌ لقلبك ✿

لو لم تمر بكل ما كسرك في الماضي... هل كنت ستكون اليوم أقرب إلى الله، أم أنك ما كنت لتعرف بابه كما عرفته في لحظات ضعفك؟

عندما تشعر أن الله بعيد...

"أصعب أنواع العطش... أن يظمأ القلب وهو بجوار نهر."

هناك شعورٌ لا يجرؤ كثير من الناس على الاعتراف به. قد يصلي الإنسان، ويرفع يديه بالدعاء، ويقرأ شيئًا من القرآن، ثم يعود إلى فراشه وهو يقول في نفسه:
لماذا لا أشعر بشيء؟
لماذا أرى الناس يتحدثون عن لذة الإيمان، بينما قلبي جامد؟
هل ابتعدت عن الله؟ أم أن الله ابتعد عني؟
ولو أن هذا الخاطر مر بقلبك يومًا، فاعلم أولًا أن الله لم يبتعد عنك، لأن الله هو القائل: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}. وتأمل هذه الآية جيدًا، ففي كثير من آيات القرآن يقول الله لنبيه ﷺ: "قل"، أما هنا فلم يقل: "قل إني قريب"، بل أجاب مباشرة: {فَإِنِّي قَرِيبٌ}، وكأن الله لم يشأ أن يكون بينه وبين عبده أي واسطة حين يسأل عنه، ليشعر كل قلب أن الطريق إلى ربه أقرب مما يظن.

لكن لماذا لا نشعر بهذا القرب دائمًا؟

لأن القلوب، مثل الأجساد، تمرض وتضعف. فإذا مرض الجسد فقد شهيته للطعام، وإذا مرض القلب فقد شهيته للطاعة. وليس معنى ذلك أنه مات، بل يحتاج إلى دواء.
ودواء القلب ليس معقدًا كما نظن، إنه يبدأ بلحظة صدق،

لحظة يقف فيها الإنسان بين يدي الله بلا تكلّف، ولا كلمات مزخرفة، ويقول: "يا رب... أصلح قلبي." والله يحب هذا الصدق أكثر من الكلمات الكثيرة التي لا يحضر فيها القلب.
وقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو قسوة قلبه، فأرشده إلى أعمالٍ تُلين القلب، منها الإحسان إلى الضعفاء ومواساة المحتاجين. وكأن الإسلام يريد أن يقول لنا إن القلب لا يلين بكثرة المعرفة وحدها، بل يلين أيضًا بالرحمة. وكلما امتلأ قلبك رحمةً بخلق الله، امتلأ نورًا بقرب الله.

وتأمل حال يونس عليه السلام حين أحاطت به الظلمات؛ ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت. لم يكن معه أحد، ولم يملك سببًا من أسباب النجاة، لكنه قال من أعماق قلبه: {لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}. كلمات قليلة، لكنها خرجت من قلب منكسر، فكانت سببًا في النجاة.
ولذلك قال الله بعدها: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ}. ولم يقل: "وننجي يونس"، بل قال: {وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ}، لتبقى هذه الآية وعدًا لكل من ضاقت به الدنيا، وأقبل على الله بصدق.
وربما تظن أن الله لا يسمع دعاءك لأنك أخطأت كثيرًا، لكن الشيطان يحب أن يقنعك بهذا. أما ربك، فهو الذي فتح لك باب التوبة قبل أن تخطر ببالك فكرة الرجوع إليه. قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل.» رواه مسلم.
انظر إلى سعة هذه الرحمة؛ فالله لا يمل من قبول التائبين، وإنما نحن الذين نيأس من أنفسنا.
واعلم أن الإيمان ليس شعورًا ثابتًا لا يتغير، فقد قال النبي ﷺ: «إن الإيمان ليَخْلَق في جوف أحدكم كما يَخْلَق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم.» حسنه عدد من أهل العلم. وهذا يعلمنا أن فتور القلب لا يعني نهاية

الطريق، بل يعني أن القلب يحتاج أن يعود إلى مصدر حياته، كما تحتاج الأرض اليابسة إلى المطر.

فإذا مررت بأيام لا تشعر فيها بلذة العبادة، فلا تتركها. صلِّ وإن لم تبكِ، واقرأ القرآن وإن لم تشعر بما كنت تشعر به من قبل، وادعُ الله وإن طال الانتظار. فإن الثابتين هم الذين يصلون إلى النهاية، لا الذين لم يعرفوا الفتور أبدًا. واعلم أن أجمل لحظات القرب من الله قد تبدأ بدعاءٍ بسيط خرج من قلبٍ ظن أنه بعيد، بينما كان الله أقرب إليه من حبل الوريد.

✿ سؤالٌ لقلبك ✿

إذا كان الله يقول لك: {فَإِنِّي قَرِيبٌ}... فمن الذي يحتاج أن يخطو الخطوة الأولى: ربك الذي دعاك، أم قلبك الذي اشتاق إليه؟

الشيء الذي تخاف منه..قد لا يحدث أبدًا..

"كم مرةٍ عشت الحزن على شيءٍ لم يقعِ؟ وكم مرةٍ سرق منك الخوف أيامًا جميلة، ثم اكتشفت أنه كان مجرد وهم؟"

من أكثر الأشياء التي تُتعب القلب... ليس ما يحدث له، بل ما يتخيل أنه سيحدث. يجلس الإنسان في غرفته، فيبدأ عقله يرسم أسوأ الاحتمالات، ويعيشها وكأنها وقعت بالفعل. يخاف من مرضٍ لم يُصب به، ومن فشلٍ لم يقع، ومن فراقٍ لم يأتِ، ومن مستقبلٍ لا يعلمه إلا الله. فينام مهمومًا، ويستيقظ مهمومًا، بينما الحقيقة أن كل ما أتعبه... لم يكن إلا أفكارًا.
ولهذا كان الشيطان يحرص دائمًا على أن يشغل قلب المؤمن بالمجهول. فهو يعلم أن القلب إذا امتلأ بالخوف، ضاقت عليه العبادة، وضعف يقينه، وصار ينظر إلى الغد بعين القلق لا بعين الثقة. أما الله سبحانه، فلم يطلب منك أن تحمل همَّ الغد، لأنه يعلم أن الغد لم يأتِ بعد، والذي سيدبره غدًا هو نفسه الذي دبر أمرك بالأمس، ولم يتركك.
قال الله تعالى: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}. تأمل كلمة "حسبه"؛ أي كافيه، فلا يقول: "أعينه فقط"، بل يكفيه، ويحفظه، ويدبر أمره. ولذلك كان العلماء يقولون: من عرف الله، هان عليه كل ما سواه، لأن من كان الله معه، فمن عليه؟
وتأمل إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار. لو نظر الناس إلى الأسباب لقالوا: انتهى الأمر. نار عظيمة، وقوم مجتمعون، ولا سبيل للنجاة. لكن إبراهيم لم يكن ينظر إلى النار، بل كان ينظر إلى رب النار. وحين قال: "حسبي الله ونعم الوكيل"، لم تتغير النار أولًا... بل امتلأ قلبه يقينًا، ثم

جاء أمر الله: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ}.
لم يقل: "كوني بردًا" فقط، لأن البرد الشديد قد يؤذي أيضًا، بل قال: (بَرْدًا وَسَلَامًا)، لأن لطف الله كامل، لا ينجيك فقط، بل يرحمك وأنت تنجو.

كم من مرةٍ ظننت أن حياتك انتهت بسبب بابٍ أُغلق؟

ثم فتح الله بابًا أجمل منه. وكم من مرةٍ خفت من شيء، فلما جاء وجدته أهون بكثير مما رسمه خوفك. لهذا لا تجعل خيالك يكتب مستقبلًا لم يكتبه الله. إن الغيب ملكٌ لله وحده، وما دام قد أخفاه عنك، فاعلم أن في إخفائه رحمة. ولو كان في معرفته خيرٌ لك، لأطلعك عليه.

قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك.»

رواه الترمذي وصححه أهل العلم.

هذا الحديث لا يعلمك فقط العقيدة، بل يعلمك الراحة. لأن الإنسان يتعب حين يظن أن حياته بيد الناس، فإذا أيقن أنها بيد الله، سكنت نفسه.

وربما لهذا السبب كان النبي ﷺ إذا أهمَّه أمرٌ، لم يستسلم للقلق، بل كان يقول: «اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلًا، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلًا.» فما أجمل هذا الدعاء!

إنه لا ينكر وجود الصعوبة، لكنه يوقن أن الله قادر أن يبدلها يسرًا في لحظة.

لا تسمح للخوف أن يسرق عمرك مرتين؛ مرة قبل وقوع المصيبة، ومرة إن وقعت. عش يومك كما أراد الله لك، وخذ بالأسباب، ثم سلِّم الأمر لمن لا يخطئ تدبيره. فكم من أقدارٍ أخافت أصحابها قبل أن تأتي، فلما جاءت كانت تحمل في طياتها خيرًا لم يكونوا يتوقعونه.
وربما يأتي يوم، تلتفت فيه إلى سنواتٍ مضت، فتضحك من نفسك، وتقول: "كم أتعبت قلبي بأشياء لم تحدث أبدًا." وحينها ستفهم أن أجمل حياةٍ يعيشها المؤمن، ليست الحياة الخالية من المشكلات، بل الحياة الممتلئة بالثقة بالله.

✿ سؤالٌ لقلبك ✿

لو أخبرك الله الآن أن كل ما يشغل بالك سيتولى هو تدبيره... فهل سيبقى في قلبك مكان لكل هذا الخوف؟

بينك وبين اللهِ... بابٌ لا يعرفه أحد

"قد يعرف الناس اسمك، وشكلك، وحياتك... لكن لا أحد يعرف حقيقتك كما يعرفها الله."

هناك أشياء لا يستطيع الإنسان أن يخبر بها أحدًا. ليست لأنه لا يريد، بل لأنه يعجز عن وصفها. وجعٌ يسكن صدره منذ سنوات، خوفٌ يخفيه خلف ابتسامته، ودمعةٌ يبتلعها كلما سأله أحد: "كيف حالك؟" فيجيب تلقائيًا: "الحمد لله"، بينما في داخله ألف كلمة لم تُقل.

ولهذا خلق الله الدعاء.

لم يخلقه لأن الله لا يعلم ما في قلبك، فهو سبحانه يعلم السر وأخفى، ولكن خلقه لتشعر أن لك بابًا لا تحتاج فيه إلى أن تشرح، ولا أن ترتب كلماتك، ولا أن تخشى أن يُساء فهمك.

يكفي أن ترفع يديك، فيعلم الله ما عجز لسانك عن قوله.

كم هو مريح أن تعلم أن هناك ربًا لا تحتاج أن تتظاهر أمامه بالقوة. تستطيع أن تبكي بين يديه دون خجل، وأن تعترف بضعفك دون خوف، وأن تقول: "يا رب... لقد تعبت."

فيكون ذلك الاعتراف بداية القوة، لا علامة الضعف.

ولذلك كان يعقوب عليه السلام، بعد سنواتٍ طويلة من الفقد، لا يشتكي للناس، بل قال: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ}.

تأمل هذه الآية. لم يقل: "أكتم حزني"، فالإسلام لا يطلب منك أن تنكر ألمك، لكنه يعلمك أن تجعل أول من يسمعه هو الله. لأن الناس قد يواسونك ثم ينصرفون، أما الله فلا يغلق بابه أبدًا.

وتأمل أعظم رجلٍ مشى على الأرض، رسول الله ﷺ، حين خرج إلى الطائف يدعو إلى الله، فقوبل بالأذى والسخرية ورُمي بالحجارة حتى سال الدم من قدميه الشريفتين. وفي تلك اللحظة، لم يدعُ على قومه، ولم يقل: "لماذا يحدث لي هذا؟" وإنما رفع رأسه إلى السماء وقال في دعائه المشهور: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس...». لم يكن يشكو من الله، وإنما كان يشكو إلى الله، وهناك فرقٌ عظيم بين الأمرين. فالشكوى من الله اعتراض، أما الشكوى إليه فهي عبودية، وثقة، وافتقار.

وقد يخيل إليك أحيانًا أن الله تأخر في إجابتك،
لكن هل فكرت أن الله ربما كان يغيرك أنت، قبل أن يغير ظروفك؟

كثيرٌ من الناس يدعون الله أن يبدل حياتهم، بينما يريد الله أولًا أن يبدل قلوبهم، لأن القلب إذا صلح، صار يرى الدنيا بعينٍ مختلفة. وربما لهذا قال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ}. ليست دعوة إلى اليأس، بل دعوة إلى البداية من الداخل، فهناك معارك تُحسم في القلب قبل أن تُحسم في الواقع.

ومن رحمة الله أن أبوابه لا تُغلق بكثرة الذنوب، ولا بطول الغياب. ففي الحديث القدسي يقول الله عز وجل: «يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني، غفرت لك ولا أبالي.» رواه الترمذي وحسنه أهل العلم.

تأمل قوله: "ولا أبالي." ليس لأن الذنب صغير، بل لأن رحمة الله أعظم، ولأن كرمه سبحانه لا يشبه كرم أحد.

فإذا شعرت يومًا أن الدنيا أغلقت أبوابها في وجهك، فلا تنس أن هناك بابًا واحدًا لا يُغلق أبدًا. بابٌ لا يحتاج إلى موعد، ولا إلى واسطة، ولا إلى أن تكون كاملًا حتى تدخله. كل ما يحتاجه قلبٌ صادق، يقول: "يا رب." وربما تكون هذه الكلمة، إذا خرجت من أعماق روحك، أثقل عند الله من آلاف الكلمات التي قيلت بلا حضور قلب.

واعلم أن أعظم علاقة في حياتك ليست مع إنسان يحبك، ولا مع قريب يفهمك، ولا مع صديق يساندك، بل مع الله. لأن كل

العلاقات قد تنتهي يومًا بالموت أو الفراق، أما علاقتك بربك، فهي الوحيدة التي تبدأ في الدنيا، وتستمر إلى الأبد. فإذا أصلحتها، أصلح الله لك ما بعدها، وإذا امتلأ قلبك به، هان عليك ما فقدت من الدنيا، لأن من وجد الله... ماذا فقد؟ ومن فقد الله... ماذا وجد؟

✿ سؤالٌ لقلبك ✿

متى كانت آخر مرة جلست فيها وحدك، لا تطلب من الله شيئًا من الدنيا، وإنما قلت فقط: "يا رب... أريد أن أكون قريبًا منك."

الأشياءالتي لن يأخذها الموت منك

"كل شيءٍ تخاف أن تفقده... سيفارقك يومًا، إلا شيءٌ واحد، فإن أخذته معك، فلن تخسر أبدًا."

منذ أن فتح الإنسان عينيه على هذه الدنيا، وهو يتعلّق بالأشياء. يتعلق ببيتٍ يسكنه، ومالٍ يجمعه، وأشخاصٍ يحبهم، وأحلامٍ يسعى إليها، ثم يمضي العمر سريعًا حتى يكتشف الحقيقةَ التي كان يهرب منها دائمًا: أنه لم يكن يملك شيئًا منها على الحقيقة. كل شيءٍ في هذه الحياة مستعار، وسيأتي يومٌ يُقال فيه: انتهت الرحلة، وأعد كل أمانةٍ إلى صاحبها.

قال الله تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}. تأمل هذه الآية بقلبك، لا بعينيك فقط. كلمة "كل" لم تستثنِ أحدًا، ولا شيئًا. كل ما تراه الآن... سيمضي. البيوت التي نعجب بها، والوجوه التي نحبها، والأماكن التي نظن أننا لن نغادرها، وحتى أجسادنا التي نحملها كل يوم... ستبقى يومًا على الأرض، بينما تمضي أرواحنا وحدها إلى الله.

ولهذا كان العقلاء لا يجعلون أعظم استثمارٍ لهم في شيءٍ سيتركهم، بل في شيءٍ سيرافقهم. وقد قال النبي ﷺ:

«يتبع الميت ثلاثة: أهله، وماله، وعمله، فيرجع اثنان، ويبقى واحد؛ يرجع أهله وماله، ويبقى عمله.» متفق عليه.

ما أعظم هذا الحديث، وما أشد اختصاره للحياة! تخيل أن كل ما أتعبت نفسك في جمعه سيقف عند باب قبرك ثم يعود، بينما تبقى وحدك مع صلاتك، وصدقك، ورحمةٍ قدمتها، ودمعةٍ بكيت بها بين يدي الله، وكلمةٍ طيبةٍ خرجت من قلبك،

وذنبٍ تُبت منه، وحسنةٍ ظننتها صغيرة، فإذا بها أعظم مما توقعت.

ولهذا لم يكن الصحابة رضي الله عنهم ينظرون إلى الدنيا كما ننظر إليها نحن اليوم. كانوا يأخذون منها ما يبلغهم الآخرة، لكنهم لم يجعلوها تسكن قلوبهم. لأن القلب إذا امتلأ بالدنيا، ضاق عن الآخرة، وإذا امتلأ بالله، صغرت الدنيا في عينيه، مهما عظمت.

ولعل أكثر ما يخدع الإنسان أنه يظن أن أمامه وقتًا طويلًا. يؤجل التوبة، ويؤجل الصلح، ويؤجل القرآن، ويؤجل الصدقة، ويؤجل كلمة "أحبك" لوالديه، ويؤجل الاعتذار، ويؤجل كل خير، وكأنه كتب له أن يعيش غدًا. لكن الله لم يعد أحدًا بالغد، وإنما أعطاك اليوم، وجعل الغد في علمه وحده.

ولذلك قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل.» ثم كان ابن عمر يقول: "إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء." ليس دعوةً لترك الحياة، وإنما دعوة لأن تعيشها بقلبٍ لا ينسى أنها طريق، وليست وطنًا.

تأمل في المقابر... لا لتخاف، ولكن لتعرف الحقيقة. هناك يرقد الغني والفقير، والقوي والضعيف، والمشهور والمجهول. لم يدخل أحدٌ منهم قبره ومعه حسابه البنكي، ولا منصبه، ولا عدد الذين كانوا يصفقون له. دخلوا جميعًا بثوبٍ أبيض، يحمل كل واحدٍ منهم صحيفة أعماله فقط. وكأن الله يريد أن يقول لنا كل يوم: لا تنشغلوا بما ستتركونه، بل بما ستلقونني به.

وربما لهذا السبب، إذا أحب الله عبدًا، لم يجعل أكبر همّه الدنيا، بل جعل أكبر همّه أن يلقاه وهو راضٍ عنه. لأن أعظم خسارة ليست أن تخسر مالًا، أو وظيفة، أو علاقة، وإنما أن

تمر سنوات عمرك، ثم تكتشف أنك بنيت كل شيء... إلا علاقتك بالله.

فاسأل نفسك كل ليلة قبل أن تنام:

لو كانت هذه آخر ليلةٍ في عمري، هل سأندم على شيء؟

ليس ندمًا على مالٍ لم أجمعه، ولا على سفرٍ لم أقم به، بل هل سأندم على سجدةٍ تركتها؟

على قرآنٍ هجرته؟

على قلبٍ كسرته؟

على أمٍّ أخّرت برّها؟

فإن وجدت الجواب، فلا تؤجله إلى غد، فقد يكون اليوم هو الفرصة التي لن تتكرر.

وفي النهاية، ستكتشف أن أجمل ما جمعته في حياتك، لم يكن ما وضعته في خزائن الدنيا، بل ما أرسلته أمامك إلى الآخرة. فكل حسنةٍ أخلصت فيها لله، لم تذهب، وكل دعوةٍ خرجت من قلبك، لم تضِع، وكل دمعةٍ نزلت خشيةً منه، محفوظةٌ عنده. وإذا وقفت بين يديه يوم القيامة، ستدرك أن أغنى الناس حقًا، لم يكن أكثرهم مالًا، بل أكثرهم رصيدًا عند الله.

✿ سؤالٌ لقلبك ✿

إذا أخذ الموت منك كل شيءٍ تملكه اليوم... فما الشيء الذي تتمنى أن يبقى معك حين تقف بين يدي الله؟

لماذا خلق الله قلبك؟

"لو كان المال يملأ القلب، لما حزن الأغنياء. ولو كانت الشهرة تمنح الطمأنينة، لما بكى المشاهير. ولو كانت الدنيا تكفي، لما بقي في داخل الإنسان هذا الفراغ الذي لا يعرف له اسمًا."

هل سألت نفسك يومًا:
لماذا، رغم كل ما نملكه أحيانًا، يبقى في داخلنا شيءٌ ناقص؟
لماذا يحقق الإنسان حلمًا كان يظنه سيغيّر حياته، ثم بعد فترة يعود إلى الشعور نفسه؟ لماذا ينتظر بيتًا، أو وظيفةً، أو زواجًا، أو نجاحًا، ثم إذا وصل إليه، فرح قليلًا، ثم عاد يبحث عن شيءٍ آخر؟
لأن الله لم يخلق قلب الإنسان ليكتفي بالدنيا، بل خلقه لشيءٍ أكبر منها. ولهذا قال سبحانه: {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}.
لم يقل: تسعد، بل قال: تطمئن؛ لأن السعادة قد يمنحها موقفٌ جميل أو خبرٌ مفرح، أما الطمأنينة فهي وطنٌ يسكن القلب، ولا يبنيه إلا الله.
إن القلب يشبه الأرض العطشى؛ قد تُزينها بالورود من الخارج، لكن إن انقطع عنها الماء، يبقى ذبولها محتومًا.
وكذلك القلب، قد تملؤه بالناس، وبالإنجازات، وبكل ما تتمناه النفس، لكن إذا خلا من ذكر الله، بقي يشعر بشيءٍ لا يستطيع تفسيره. ولهذا كان ابن القيم رحمه الله يقول بمعنى كلامه:
في القلب فاقة لا يسدها إلا الإقبال على الله. وليس المقصود أن يترك الإنسان الدنيا، بل أن يعرف حجمها الحقيقي؛ يأخذ منها ما يعينه على طاعة الله، ولا يجعلها أكبر من قلبه.
وتأمل قارون، فقد آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، حتى تمنى بعض الناس أن يكونوا

مكانه، ثم لم تمضِ إلا لحظات من قصة القرآن حتى خسف الله به وبداره الأرض. لم يكن المال هو المشكلة، وإنما ظنه أن المال هو مصدر الأمان. بينما كان الأمان الحقيقي في شيءٍ لم يملكه، وهو التواضع لله، وشكر نعمه. ولذلك ختم الله القصة بقوله: {وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}، وكأن النجاح الذي يراه الناس قد لا يكون نجاحًا عند الله.

وعلى الجانب الآخر، انظر إلى بلال بن رباح رضي الله عنه، لم يكن يملك القصور ولا الذهب، لكنه كان يملك قلبًا عرف الله، حتى صار صوته وهو يقول: "أحدٌ أحد" أعظم من أصوات ملوكٍ عاشوا في عصره ثم طواهم النسيان.
فالقيمة الحقيقية للإنسان ليست فيما يملك، بل فيما يملأ قلبه.
ولذلك كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول: «اللهم اجعل غنى نفسي.» لأن أغنى الناس ليس من كثرت أمواله، وإنما من استغنى قلبه بالله. وقال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس.» متفق عليه. وهذا الحديث يفسر سرًّا عجيبًا؛ فقد تجد إنسانًا لا يملك إلا القليل، لكنه ينام قرير العين، وتجد آخر يملك كل شيء، لكنه لا يعرف طعم الراحة. لأن الأول امتلأ قلبه باليقين، والثاني امتلأ بالخوف من أن يفقد ما عنده.
وربما لهذا السبب يبتليك الله أحيانًا بنقص شيءٍ تحبه، حتى لا تظن أن سعادتك معلقة به. لأنه لو علق قلبك بشيءٍ من الدنيا، ثم أخذه الله منك، لانكسر قلبك معه. أما إذا تعلق قلبك بالله أولًا، فإن كل ما سواه يصبح نعمةً تشكر عليها، لا صنمًا تخاف فقده.
وحين تقف يومًا تصلي، فلا تجعل الصلاة عادةً تؤديها، بل موعدًا تعود فيه إلى المكان الذي ينتمي إليه قلبك. فالقلب الذي يعرف ربه، قد يحزن، وقد يتألم، وقد يبكي، لكنه لا

يضيع. لأنه يعلم أن له ربًا إذا ضاقت به الأرض، فتح له أبواب السماء.
وربما بعد سنوات طويلة من الركض خلف كل شيء، ستكتشف أن أعظم أمنيةٍ لم تكن أن تملك الدنيا، بل أن يرزقك الله قلبًا إذا ذُكر اسمه اطمأن، وإذا نزل البلاء صبر، وإذا أذنب استغفر، وإذا أُعطي شكر، وإذا لقي ربه، لقيه بقلبٍ سليم.

✿ سؤالٌ لقلبك ✿

لو أعطاك الله اليوم كل ما تتمناه من أمور الدنيا، لكنه نزع من قلبك لذة القرب منه... فهل ستكون حقًا قد ربحت؟

هل يغفر الله لمن أثقلته الذنوب؟

"ليست المشكلة في كثرة ذنوبك... بل في أن تظن أن رحمة الله أصغر منها."

هناك معركةٌ لا يراها أحد، تدور في صدر الإنسان كلما تذكر ماضيه. قد يبتسم أمام الناس، ويبدو مطمئنًا، لكن إذا خلا بنفسه، عاد إليه شريط الذكريات؛ كلمات ندم عليها، وذنوب يتمنى لو لم يفعلها، وأيام ضيّعها بعيدًا عن الله. وربما همس له الشيطان: "لقد تأخرت كثيرًا... لن يُغفر لك." وما من كذبةٍ أشد خطرًا من هذه، لأنها لا تدفع الإنسان إلى الذنب فقط، بل تدفعه إلى اليأس، واليأس هو الباب الذي يحب الشيطان أن يدخل منه إلى القلوب.

لكن الله، سبحانه وتعالى، أغلق هذا الباب بآيةٍ لو تدبرها الناس حق التدبر، لما قنط أحد من رحمته. قال جل جلاله: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}. تأمل كيف بدأ النداء: {يَا عِبَادِيَ}، ولم يقل: "يا عصاة" أو "يا مذنبون". حتى وأنت في ذنبك، لم يسلبك الله شرف أن تناديه ربًا، ولم يسلبك أن يناديك عبدًا له، ثم قال: {لَا تَقْنَطُوا}، لأن اليأس من رحمة الله ذنبٌ آخر، ولأن الذي خلق الرحمة هو أعلم بسعتها.

وروى البخاري ومسلم أن رجلًا قتل مائة نفس، ثم سأل: هل لي من توبة؟ قد يظن العقل أن باب الرحمة قد أُغلق في وجهه، لكن الله فتح له باب الأمل، فلما صدق في طريق التوبة، غفر الله له. لم يكن السر في أن ماضيه كان قليل

السواد، بل في أن قلبه اتجه إلى الله بصدق. إنها رسالة لكل إنسان: لا تجعل ماضيك يحكم على مستقبلك مع الله.

وربما تقول في نفسك: "لكنني أكرر الذنب." وهل تظن أن الله لا يعلم ضعفك؟ لقد قال النبي ﷺ: «كل بني آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابون.» لم يقل: خير الناس الذين لا يذنبون، لأن هذا ليس من طبيعة البشر، وإنما خيرهم من كلما سقط، نهض، وكلما أخطأ، عاد، وكلما ابتعد، رجع إلى ربه بقلبٍ منكسر.

إن الشيطان يريدك أن تنظر إلى ذنبك، أما الله فيدعوك أن تنظر إلى رحمته. الشيطان يقول: "لقد انتهيت." والله يقول: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ}. الشيطان يذكرك بما فعلت، والله يذكرك بما يمكن أن تصبح عليه إذا صدقت في العودة إليه.

ولا تظن أن التوبة مجرد كلمات تُقال باللسان، بل هي ميلاد جديد للقلب. قد يبكي إنسان من خشية الله في لحظةٍ واحدة، فيبدل الله بها سنواتٍ من الغفلة. وقد يرفع يديه في جوف الليل ويقول: "يا رب... تعبت من نفسي." فتكون تلك الليلة بداية حياةٍ لم يكن يتخيلها.

ولعل أجمل ما في رحمة الله أنها لا تمحو الذنب فقط، بل قد تبدله حسنات. قال سبحانه: {فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ}. أي كرمٍ أعظم من هذا؟ ليس العفو فحسب، بل تحويل صفحاتٍ سوداء إلى نور، إذا صدقت التوبة واستقام القلب.

فلا تؤخر رجوعك إلى الله لأنك تنتظر أن تصبح صالحًا، بل ارجع إليه كما أنت، بضعفك، وخوفك، وندمك، وهو سبحانه يتولى إصلاحك. فإن الله لا يرد قلبًا جاءه صادقًا، ولو حمل من الذنوب ما حمل.

✿ سؤالٌ لقلبك ✿

إذا كان الله قد فتح لك باب التوبة إلى آخر لحظةٍ من عمرك... فما الذي يؤخرك عن طرق هذا الباب اليوم، قبل الغد؟

لماذا لا يفهمك أحد؟

"أحيانًا لا يؤلمك ما تمر به... بل يؤلمك أنك لا تجد من يشعر بما تمر به."

من أشد أنواع الوحدة، أن تكون محاطًا بالناس، ومع ذلك تشعر أن لا أحد يعرفك حقًا. تبتسم لأنهم ينتظرون منك الابتسامة، وتقول: "أنا بخير"، لأنك تعلم أنهم لن يفهموا الجواب الحقيقي إن قلت غير ذلك. تمر أيامٌ تشعر فيها أن في داخلك حديثًا لو خرج، لبكيت ساعات، لكنك تبتلعه مرةً بعد مرة، حتى يصبح الصمت لغةً يتقنها قلبك أكثر من الكلام.
وليس لأن الناس سيئون... ولكن لأن كل إنسان يرى الحياة من نافذة ألمه هو. فمن لم يذق وجعك، لن يستطيع أن يشعر به كما تشعر أنت، ولو أحبك. ولهذا كثيرًا ما يُساء فهم القلوب الطيبة، ويُظن أن الهادئ لا يحمل همًا، وأن المبتسم لا يعرف الحزن، وأن القوي لا يحتاج إلى من يسنده، بينما الحقيقة أن أكثر القلوب صمتًا... قد تكون أكثرها تعبًا.
ولهذا كان الله وحده هو الذي قال: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}. تأمل هذه الآية... لم يقل: نعلم ما يقوله، بل قال: {مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ}؛ أي حتى الكلمات التي لم تخرج من فمك، وحتى الدموع التي حبستها، وحتى الخواطر التي تخجل أن تخبر بها أحدًا... كلها معلومة عند الله.

ولهذا لم يكن الأنبياء يبحثون دائمًا عن من يفهمهم من البشر، بل كانوا يجدون راحتهم في أن الله يعلم ما في صدورهم.
حين اشتد الحزن بيعقوب عليه السلام، لم ينتظر من الناس أن يفهموا حجم فقده، بل قال:
{إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ}. وكأن القلب إذا وجد من يفهمه حقًا، هدأ، ولو بقي الألم كما هو.
وقال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.» رواه مسلم.
وما أعظمها من راحة... فالناس قد يحكمون عليك بما يرونه، أما الله فيحكم عليك بما يعلم أنه في قلبك. قد يسيء الناس فهم نيتك، لكن الله لا يسيء فهمها أبدًا. قد تُتَّهَم وأنت بريء، وقد تُظلَم وأنت صادق، لكن يكفي أن الذي في السماء يعلم الحقيقة كاملة.
فلا تُرهق نفسك بمحاولة أن يراك الجميع كما أنت، فهذا لن يحدث. سيبقى هناك من يسيء فهمك، ومن يظنك قويًا لأنك لا تشتكي، ومن يظنك سعيدًا لأنك تبتسم. لكن ليس المطلوب أن يفهمك كل الناس، بل أن تبقى صادقًا مع الله، لأنه الوحيد الذي لن تحتاج أمامه إلى شرح، ولا إلى تبرير، ولا إلى الدفاع عن نفسك.
وربما كانت أجمل راحة يمنحها الله لعبده، أن يصل إلى مرحلة يقول فيها: "يكفيني أن الله يعلم." فإذا علم الله صدقك،

فلا يضرك من جهل الناس. وإذا رضي الله عن قلبك، فلن ينقصك شيء، حتى لو لم يفهمك أحد.

✿ سؤالٌ لقلبك ✿

إذا كان الله يعلم كل ما لم تستطع أن تقوله لأحد... فلماذا تحمل في قلبك همَّ أن يفهمك الناس جميعًا؟

عندما تقف بين يدي اللّٰه...

"هناك يومٌ سيصمت فيه كل شيء... ولن يبقى إلا الحقيقة."

تخيل... ليس لتخاف، ولكن لتستيقظ.
تخيل أن هذه الليلة هي آخر ليلةٍ من عمرك، وأن الشمس التي غابت اليوم لن تراها مرةً أخرى. لا أحد يعلم ذلك، ولا أحد يودعك، والحياة خارج نافذتك تسير كما كانت دائمًا، بينما اسمك قد كُتب في السماء مع الذين انتهى أجلهم.
ثم يأتي ذلك اليوم الذي أخبرنا الله عنه، اليوم الذي قال فيه:
{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}.
لم يقل: ستموت بعض النفوس، بل كل نفس. الملوك، والفقراء، والعلماء، والأطفال، ومن ظنوا أن أمامهم سنوات طويلة... كلهم مروا من هذا الباب، وسيأتي يومٌ نعبره نحن أيضًا.
ثم يُغلق الباب خلفك، وينصرف الناس الذين بكوا عليك، ويعود كل واحدٍ إلى حياته، ويبقى معك في قبرك شيءٌ واحد... أنت وعملك.
في تلك اللحظة، لن يهمك كم كان يتابعك الناس، ولا كم كنت تملك، ولا كم مرةً انتصرت في جدال، ولا كم شخصًا أثنى عليك. سيصبح كل ذلك صغيرًا جدًا، وستبحث بعينيك عن سجدةٍ أخلصت فيها لله، وعن دمعةٍ نزلت خشيةً منه، وعن صدقةٍ أخفيتها، وعن كلمةٍ جبرت بها قلبًا مكسورًا.
قال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان، ويبقى واحد؛ يرجع أهله وماله، ويبقى

عمله.» متفق عليه. وما أعظمها من حقيقة! كل ما كنت تخشى فقده في الدنيا سيتركك، أما ما قدمته لله، فهو الذي سيبقى معك.

ثم تخيل أنك بُعثت من قبرك، والناس حفاةٌ عراةٌ، لا يحمل أحدٌ شيئًا إلا عمله، وكل إنسانٍ مشغولٌ بنفسه. يومها لن تستطيع أن تقول: "سأبدأ غدًا." لأن الغد قد انتهى. ولن تقول: "سأتوب عندما أفرغ." لأن الوقت الذي كنت تنتظره قد انقضى.

ومع ذلك... وسط هذا المشهد العظيم، هناك شيءٌ يملأ القلب رجاءً.

إن الرب الذي ستقف بين يديه، هو نفسه الذي كان يفتح لك باب التوبة كلما أغلقتَه بذنوبك. هو الذي كان يسترك وأنت تعصيه، ويرزقك وأنت تغفل عنه، ويجيب دعاءك وأنت تعود إليه. هو القائل في الحديث القدسي:

«يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني، غفرت لك ولا أبالي.» فما أعظم رحمته! إنه سبحانه لا يفرح بعذاب عباده، بل قال: {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ}. كأن الله يقول لعباده: إنما أريد منكم أن ترجعوا إليّ، لا أن تهلكوا.

وربما لهذا السبب، لم يكن أكثر دعاء الصالحين طلبًا للدنيا، بل كان خوفًا أن يلقوا الله بقلوبٍ لم تُصلحها التوبة. كانوا يعلمون أن أجمل لحظةٍ في الوجود، ليست يوم يجمع الإنسان مالًا، ولا يوم يحقق حلمًا، وإنما اليوم الذي ينظر الله فيه إلى عبده راضيًا عنه.

فلا تؤجل إصلاح قلبك. لا تنتظر مناسبةً لتعود إلى القرآن، ولا رمضان لتقترب من الله، ولا أزمةً حتى ترفع يديك بالدعاء. فكم من إنسانٍ قال: "سأفعل غدًا"... ولم يدركه الغد.

إذا انتهيت من هذه الصفحة، فأغلق الكتاب قليلًا، واجلس مع نفسك. اسألها:

ماذا لو دعوت الله الآن دعاءً لا يسمعه أحد غيره؟
ماذا لو اعتذرت إليه عن كل تقصير؟
ماذا لو كانت هذه السجدة هي أصدق سجدةٍ في عمرك؟

إن الله لا ينظر إلى كثرة الكلمات، بل إلى صدق القلب.
وربما تكون لحظة صدقٍ واحدة، سببًا لأن يبدل الله بها حياتك كلها.
وأريد أن أترك في قلبك آخر معنى قبل أن تطوي هذا الكتاب...
إذا أحبك الناس، ثم غضب الله عليك، فلن ينفعك حبهم.
وإذا رضي الله عنك، ثم خذلك الناس جميعًا، فلن يضرك خذلانهم.
لأن النهاية ليست عند باب بيتك...
ولا عند آخر يومٍ في عمرك...
بل حين تقف بين يدي الله، فينظر إليك ربك برحمة، ويقال لك:
{سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}.
هناك فقط...

ستفهم لماذا صبرت.
ولماذا بكيت.
ولماذا تأخر الفرج.
ولماذا انكسر قلبك ثم جبره الله.
وستعلم يقينًا أن الله لم يُضِع دمعةً واحدة، ولا دعوةً واحدة، ولا سجدةً واحدة، وأن كل لحظةٍ عشتها وأنت تثق به، كانت محفوظةً عنده، حتى جاء اليوم الذي ردها عليك أضعافًا مضاعفة.
فإذا بلغت تلك اللحظة...
فستقول من أعماق روحك:
الحمد لله... لقد كان الله ألطف بي مما كنت أظن.

❁ سؤالٌ لقلبك ❁

إذا وقفت اليوم بين يدي الله، وسألك:

"يا عبدي... ماذا صنعت بالسنين التي منحتك إياها؟"

فبأي جوابٍ تتمنى أن تلقاه؟

الخاتمة

إذا وصلت إلى هذه الصفحة... فأنت لم تقرأ كلماتٍ فقط، بل رافقتني في رحلةٍ بين الخوف والرجاء، وبين الانكسار والجبر، وبين ضعف الإنسان وعظمة الله.

ولا أدري أيُّ فصلٍ لامس قلبك، ولا أيُّ آيةٍ أيقظت شيئًا بداخلك، ولا أيُّ سطرٍ جعلك تتوقف لتفكر أو لتبكي، لكنني أدعو الله أن يكون قد جعل في هذه الصفحات خيرًا لك ولي، وأن تكون سببًا في أن تخرج منها بقلبٍ أقرب إليه مما كان عليه قبل أن تبدأ القراءة.

واعلم أنني لم أكتب هذا الكتاب لأنني إنسانٌ لا يخطئ، ولا لأنني بلغت منزلةً أُذكِّر الناس منها، بل كتبته لأنني عبدٌ فقير إلى رحمة الله، أرجو عفوه كما ترجوه أنت، وأحتاج إلى مغفرته كما تحتاج إليها أنت. وكل كلمةٍ كتبتها، كنتُ أول من يحتاج أن يعمل بها.

وإذا شعرت يومًا بعد إغلاق هذا الكتاب أن الدنيا ضاقت بك، فلا تبحث أولًا عن هذه الصفحات، بل افتح كتاب الله، فإنه النور الذي لا ينطفئ، والكلام الذي لا يشيخ، والسكينة التي

لا تنفد. وإن وجدت نفسك ضعيفًا، فلا تيأس، فليس المطلوب أن تكون كاملًا، وإنما أن تعود إلى الله كلما ابتعدت، وأن تقوم كلما سقطت، وأن تحسن الظن بربك حتى تلقاه.

وإن كان الله قد كتب لك أن تنتفع بكلمةٍ من هذا الكتاب، أو أن يطمئن قلبك بسبب صفحةٍ منه، فأرجو منك رجاءً من قلبٍ إلى قلب...

إذا رفعت يديك يومًا في سجودك، أو في جوف الليل، أو في ساعةٍ ترجى فيها الإجابة، فلا تنسني من دعوةٍ صادقة لا أعلم بها. ادعُ الله أن يغفر لي ما علمتُ منه وما لم أعلم، وأن يستر عيوبي، ويشرح صدري، ويصلح قلبي، ويثبتني على طاعته حتى ألقاه، وأن يرحم والديَّ كما ربياني صغيرًا، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به كل من قرأه، وأن يجعله نورًا لي في قبري، وثقيلًا في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم.

ولعل دعوةً واحدةً منك، يرفعها الله إلى السماء، تكون سببًا في مغفرة ذنوبي، أو في تفريج كربةٍ عني، أو في رفع درجتي، أو في أن يجمعني وإياك في جنات النعيم، حيث لا حزن، ولا خوف، ولا فراق.

وإن نسيت كل ما قرأته في هذا الكتاب، فلا تنسَ هذه الحقيقة العظيمة...

أن الله أرحم بك من أمك، وأعلم بوجعك من نفسك، وأقرب إليك مما تتخيل، فلا تيأس من رحمته أبدًا، ولا تغلق الباب الذي فتحه لك حتى آخر أنفاسك.

أسأل الله أن يجعل لقائي بك في هذه الصفحات لقاءً مباركًا، وأن يجمعني وإياك يوم القيامة تحت ظل عرشه، وأن يسقينا من يد نبينا محمد ﷺ شربةً لا نظمأ بعدها أبدًا، وأن يجعل آخر كلامنا من الدنيا: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

اللهم إن كان في هذا الكتاب خيرٌ فاجعله خالصًا لوجهك الكريم، واغفر لكاتبه، ولوالديه، ولمن قرأه، ولمن دعا له، واجمعنا جميعًا في الفردوس الأعلى من غير حسابٍ ولا سابق عذاب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.
